فصل ثالث

حاضر القارورة

طبعاً أيها السادة، لا أود أن أطيل عليكم الحديث. أقول منذ ذلك اليوم، بدأت مرحلة جديدة في حياة صاحبي (آدم). وربما يمكنني أن أستعجل وأقول إنها كانت مرحلة حاسمة ليس بالنسبة لحياته وحده، إنما حياتي أنا أيضاً، كما سترون. إنها المرحلة الأكثر غرابة واحتشاداً بأحداث عجاب.

في الليلة الأولى دخل (آدم) كون (امرأة القارورة). جسمه ظلَّ في عالمنا لكن روحه، عبر بوابة هذه الحورية، شرعت تتوغل في متاهات تاريخ سرمدي. في الليلة الأولى عند الفجر، مارس الحب معها. كل لحظة لذة وارتعاشة كانت زاخرة بأحداث عام. كما لو أن جسمه كان يستحيل إلى كتل سائلة هلامية تتلبس هيئة بشر، يولد وينمو ويمضي فترات عمره بتجاربه وتحولاته حتى يأتيه الفناء في لحظة انتهاء ارتعاشته وخموده بين أحضان (هاجر) وقد اتكأ على السياج تحت ناظر القمر الغارق في حمرة الفجر.

لقد عاد (آدم) بعد تلك الليلة إلى المنزل الجبلي، وهو يحمل قارورته المستقرة في أعماق حقيبته السوداء. استغرب لأن ضميره ما أنبه إذ خان زوجته لأول مرة منذ أن أحبها. رغم أنه أمضى ليلة بيضاء حمراء ما احسّ التعب إنما أحس برغبة في زوجته تفوق المعتاد. بينما هما متعانقان، كان صوت غناء (فيروز) يمتزج مع تنهدات (مارلين) لتتشكل منهما ألحان تنطق بلذة الخلود. في لحظات النشوة تلك، كان وجه زوجته يكتسب ملامح (امرأة القارورة)، وترتسم عليه كلمات الأغنية الصادحة من المُسجل :

"أعطني الناي وغنّ فالغنا سرُ الوجود

وأنين الناي يبقى بعد ان يُفنى الوجود"

حينها أحس (آدم) بروحه المتسامية في الأعالي قد هبطت إلى أسفله، وراحت تتسرب سائلا ملتهباً في اعماق زوجته، وظلا متعانقين وقتاً طويلاً. ولم يدركا إلا بعد عدة أسابيع أن ساعة الحب هذه كانت ساعة خصب وزرع جنين في رحم (مارلين).

منذ عامين وهما ينتظران ساعة الخصب هذه منذ أن وافق (آدم) على تحقيق رغبة زوجته في إنجاب طفل. روت لي (مارلين) فيما بعد انهما أمضيا العامين من دون أن يحدث الحمل. ظلت تستشير الأطباء في هذا الشأن، حتى قالوا لها إن العلّة تكمن في زوجها. إنه يعاني من عقم خاص ونادر: بذرته ترفض الاندماج مع بذرة أية أنثى، لا لأنها غير قادرة على الاخصاب إنما العكس، فإن بذراته مخصبة وحيوية أكثر من اللازم، وهذا التطرف في النشاط هو الذي يعيق عملية الاندماج مع بذرة الأنثى. ويقولون إن هذه العلة تعود أساساً إلى

التكوين النفسي لنوع من الرجال الذين رغم شغفهم العنيف بالمرأة فإنهم في أعماقهم يمقتونها... يمقتون كل ما هو أنثوي وخصب فيها ولاسيما صفة الأمومة. عشقهم الأصيل للموت يخلق فيهم الكره للمرأة لأنها رمز الحياة والخصب والديمومة، فهي الأرض والواقع والتاريخ. في حقيقتهم لا يعشقون في المرأة غير ذلك التوغل في أعماق المجهول، العودة إلى أزلية ما قبل الوجود، إلى سر كينونة أولى كامن في أحشائها. إنهم يمقتون فيها الحياة لأنها بالنسبة إليهم القبر الذي يدفنون حياتهم فيه.

هكذا هي الحال، عندما يطول حرماننا مما نشتهي، يبدأ عشقنا يمتزج مع الحقد ويستحيل إلى جزء منه. الأطباء اقترحوا أسلوب التلقيح الاصطناعي. وافق (آدم) على أن يعطي بذراته للمختبر ليمزجوها مع بذرات زوجته ليخلقوا اصطناعياً ظروف الأخصاب في رحمها. وقد إنتهت محاولتان من هذا النوع بالفشل، لكن (آدم) و(مارلين) قررا أن يحاولا مرات أخرى. حتى اتى ذلك اليوم الذي ظهرت فيه (هاجر)، وحدث إخصاب (مارلين) الذي أدهش الأطباء، واعتبروه محظ صدفة نادرة الحدوث.

* * *

في الفترة الأولى، كان (آدم) يحمل (امرأة القارورة) في حقيبته الصغيرة، ويسافر إلى المدن والضواحي القريبة من (جنيف)، ويمضي ليلة مع حوريته في فندق ريفي. ثم تجرأ يوماً وصارحني بحاجته إلى غرفتي بضع ساعات كل مرة أكون فيها غائباً. خمنت أن له عشيقة سرية لا يود كشف هويتها، ولم يكن يخطر ببالي أي شيء عن (هاجر). لم أكتشفها إلا بعد فترة. مع الأيام، صار (آدم) أكثر جرأة في اقتحام أماكن جديدة مع حوريته ليمارسا معاً ملذاتهما. يدخل إلى السينما ويجلس في الصفوف الأمامية الفارغة، يخرجها من قارورتها ويجعلها ترتدي ثوباً شفافاً وحذاء خفيفاً ويجلسها بجانبه ويشرح لها الفيلم. يوماً بعد يوم كان يكتشف أماكن جديدة لممارسة اللذة : المسابح، المراقص، القطارات، والأزقة والحدائق، بل وصل به الأمر أنه صار يحس بلذة اشد كلما اشتدت غرابة المكان وصعوبته، لم تفته حتى المتاحف ومكاتب الدولة والبنوك ودور العبادة.

جلب (آدم) انتباهي بالتغيرات الملحوظة التي اخذت تطرأ على شخصيته. صار اكثر إيجابية بقبول دعواتي وتمضية الأماسي في الحانات والحفلات. بدأ ينعتق من انطوائيته المعهودة وحياته المنمطة بالدار والزوجة والحاسوب. صار يحتسي بتردد بضعة كؤوس نبيذ ثم يطلق العنان لنشوة الثمالة. بل اني نجحت بتوريطه باستنشاق بضعة انفاس من الحشيشة مع الخمر، وكاد ان يفقد وعيه وامضى ليلته بالقيء الشديد، لان مزج الاثنين اشبه بمزج النار بالثلج، يخلق إنفجارات في الروح والبدن، وقليلون اولئك الذين يتحملون الامر. الم اقل لكم بأني اختلف عنه.. حتى صحياً. لم افهم اول الأمر تلك العبارات الغامضة التي كان يهذي بها احياناً عن قارورة وحورية وتاريخ أسلاف. حسبت أنه يكرر عبارات قرأها في كتاب. كنت أندهش وأنا أراه بعد

سبعة أعوام من الانغلاق والعزلة، ينطلق معي في ليالي عبثي ويشاركني في تسكعي بين الحانات. بل انه، لأول مرة، راح يسألني عن أخبار الحرب ويشترك في الحوارات الجارية بين الأصحاب. لم يعد يسخر مني وهو يرى كيف أني لا أدرك حياتي إلا من خلال إدراكي لحيوات الآخرين، وأن عيونهم هي مرآة أشاهد فيها وجودي، وأني مغرم بالتنقيب في خباياهم، وصوتى أسمعه في أصواتهم، وذاتي تسكن في ذواتهم. بل أني كثيرا ما كنت اتخيل شهواتي حصاناً جامحاً حبيس اسطبلات الناس، ولكي اطلق سراحه كان علي دائماً ان أتسلل إلى أعماقهم كضيف أو في اسوأ الأحوال كلص!

ها هي (امرأة القارورة) تحيي في (آدم) احلاماً مترسبة في أعماقه رغم ذلك اليوم الذي قررنا فيه الافتراق بعد اقتناعه بانتهاء عصر نُبوته. لقد احترقت فلسفاته وأحلامه الثورية في نيران الشرق البعيد، وما عليه حينذك إلا أن يبحث عن فلسفات وأحلام تتناسب مع طريقه الجديد. اختار النسيان ليكون سلاحه في كفاحه هذا. بدلا عن التنظيم وجد (مارلين) وبدلا عن القضية وجد (الحاسوب)، أما حلم المدينة الفاضلة وجنة حوريته فلقد استعاض عنهما بعمل طموح وحلم مستقبل زاه، سوف يصبح فيه غنيا واختصاصياً معروفاً ومواطناً سويسرياً مُعترفاً بحقوقه من قبل الدولة والمجتمع. صارمبدأه في الحياة : كلّ شيء هنا أفضل من بلادي. حتى قسوتهم وعنصريتهم أفضل من هناك. أي نوع من الآلام في (جنيف) كان يداويه باستذكار آلام أفظع وأشرس سبق وأن عاشها في الوطن. لو شتمه شرطي هنا، فانه يستذكر صفعات وركلات ووحشية الشرطة هناك. لو رفضه أحدهم وآذى مشاعره هنا، فإنه يستذكر عنف الناس هناك وقسوتهم على بعضهم البعض، فجسمه ما زال حتى الآن يحمل آثار جراح وحروق ماضية. لن ينسى ابدا ساعات غضب أبيه، وظل عميقا في ذاكرته ذلك اليوم، حينما كان عمره خمسة أعوام، ضربه أبوه وشتمه، ولسبب ظل مجهولا، قام بتعريته من ثيابه وطرده خارج الدار ليكون مسخرة اولاد الحارة، حتى أتته أمه وسترته بعباءتها السوداء. حتى الان يراوده كابوس عريه والناس يسخرون منه.

* * *

ها هو الآن (آدم) يمضي الوقت مع (هاجر) وهي تسرد له ذكرياتها عن أسلافه. كانت تمتلك ذاكرة مدهشة في خصوبتها وغزارتها. ليس جسدها وحده يعيش خلوداً وشبابا، إنما كذلك روحها ومشاعرها وذاكرتها. تذرف دموعاً على ضحايا وتفرح مع منتصرين، كأنها لم تزل تعيش معهم. كانت كطفل في تساؤل دائم عن معاني الأشياء. كل ساعة تمضيها خارج القارورة، هنالك اكتشاف جديد بالنسبة إليها. تطالبه أن يشرح لها كل شيء : السينما، التلفزيون، أخبار الصحف، التكنولوجيا، المجتمع، الثورة، المرأة، التاريخ. وصاحبي ما قصّر، أفرغ في رأسها كل ما تعلمه من الحياة والكتب وتجارب السياسة والهجرة. لاحظ أنها في أثناء

استغراقها في اكتشاف الأمور والإنصات لأحاديثه، فإن وهجاً عجيباً كان ينبعث من عينيها، شبيهاً بذلك الوهج الذي ينبعث لحظة وصولها إلى ذروة اللذة. هذا ما جعل (آدم) يدون الفكرة التالية: "إنها لا تحس الأشياء وتكتشفها فقط، إنها تمارس معها الحب. إن كان الله قد خلق الإنسان من الطين المعجون باللذة، فإنه قد خلقها من اللذة المعجونة باللذة... إنها هي اللذة بذاتها ".

أكثر ما كان يثير استغراب (آدم) أنه منذ أن التقى بـ (امرأة القارورة) عادت إلى الظهور في مخيلته صورة تلك المرأة السجينة التي أفعمت خيالات صبانا ونجحنا في أن نطمر ذكراها بعد أن وقع هو في حب (إيمان) ثم (مارلين)، وأنا في ملذات طيشي. لكن ذكراها بزغت الآن بعنف جعله يعيش من جديد تفاصيل ذلك الحادث الذي غير مجرى حياتنا معا وساهم في قطع شريان آخر بين روحينا:

في أعوام الستينات، وفي سن التاسعة اشتغلنا أنا و (آدم) في حانوت يجاور (مديرية الأمن العامة). كنا كل عصر بعد عودتنا من المدرسة نحمل المأكولات وقناني المشروب لنبيعها إلى الموقوفين السياسيين. لم نكن نجيب عن أسئلتهم ونتحاشى النظر إليهم لأن الحراس وأهلنا وصاحب الحانوت أخبرونا بأن هؤلاء مجرمون كفرة يريدون سفك الدماء وتخريب الدولة وفعل الحرام حتى مع اخواتهم وأمهاتهم. يوماً، بعثونا إلى غرفة التحقيق لتسليم العريف (عادل) طلبه. والحقيقة أن غرفة التحقيق هذه لم ندخلها سابقاً إنما تنصتنا مرات ومرات إلى صرخات الألم الصادرة منها. عندما دفعنا الباب ودخلنا الغرفة المعتمة، واجهتنا رائحة عطنة وتعرق بشري. كان العريف جالساً على كرسي خشبي وأمامه طاولة مفروشة عليها أدوات التعذيب : عصي وأنبوبة بلاستيكية وأسلاك كهربائية وقنينة وقيود، وكذلك بضعة أوراق مجعلكة وأقلام. عندما اتكأنا على الحائط بانتظار تناول العريف لطعامه وشرابه، تحاشينا النظر إلى الإنسان المعلق الذي لاح لنا شبحه أمامنا على الحائط. كانت تمطقات العريف تمتزج مع أنفاس مخنوقة متقطعة صادرة عن ذلك الإنسان. قرصني (آدم) وهمس بأذني أن لا ننظر. لكننا ما استطعنا مقاومة رغبة قدرية في متابعة قطرات دم متساقطة من الأعلى. رحنا ببطء حذِر نرفع بصرنا لنتابع القطرات تلك. كانت قبضة (آدم) تشتد كأننا مقبلين على مشاهدة جني. رأينا أولا قدمين بالكاد تلامسان الأرض. كانتا عاريتين والأصابع ترتجف بين حين وآخر، كأنها تجاهد للاستناد أكثر على الأرض. كانتا ناعمتين رشيقتين كقدمي صبي. بخشوع مندهش راحت عيوننا تنساب صاعدة إلى الساقين الأبيضين العاريين وقد رسمت الدماء مجاريها عليهما. عند الركبتين كانت حوافي التنورة السوداء متهدلة ممزقة، أما الفخذان فقد ارتسمت خطوط امتلائهما من خلف القماش.

لأول مرة نشاهد هكذا فخذين حقيقيين وقد بان بياضهما متوهجاً عبر فتوق التنورة. سبقني (آدم) إلى رفع بصره إلى الأعلى. كان قميصاً ابيض مرقطاً بزهور ملونة ملوثة ببقع حمراء وفاقعة، وقد برز عبرشقوقه ثديان نافران ظهرت حلمة أحدهما. كان الذراعان مرفوعين وقد بان شعر الإبطين. الرقبة الرقيقة كانت منثنية وقد مال بها الرأس مستنداً إلى الكتف. لم نصبر. رفعنا عيوننا لتلتهم وجهاً أنثوياً ما حسبنا يوماً أننا سنراه :

امرأة شابة معلقة من معصميها الجريحين بقيد مشدود إلى قضبان نافذة في أعلى الجدار. سوف لن ننسى إلى الأبد ذلك الوجه الفاتن المُعذب، وتلك العينين المكتظتين بأسئلة مبهمة. ستظل إلى الأبد صورتها منطبعة عميقاً في ذاكرتنا، وسيظل وجهها يراودنا في وجوه جميع نساء حياتنا. اما عيناها، فرغم الشعور بهول المصير الذي كان يصبغهما، فإن ثمة القاً صافياً ومتجسدا كماء رقراق ينساب من نبع باكر لم يشرب منه كائن.. حتى ان قشعريرة غريبة سرت فينا كأننا كنا نغتسل بنظراتها الساحرة، ولم أعثر يوماً على مثيل لذلك الوجه وتلك العينين إلا عندما التقيت بـ (هاجر) بعد اكثر من عشرين عاماً على هذا الحادث.

بقينا ثلاثة أيام محمومين، نختلق الحجج، وندخل إلى غرفة التحقيق لنشاهد سجينتنا. كنا نقف مشدوهين امامها، وجلين، مرتجفين، غارقين في مشاعر رهبة وتعبد وعشق وفجور كأننا في حضرة واحدة من آلهة شعب بدائي ناطقة بخصب وخلود. في المساء كنا نختبىء في الحديقة الواقعة خلف الغرفة، نراقب كفيها المشدودين المرئيين عبر قضبان النافذة. نتنصت مرتعبين إلى صرخات عذابها المصحوبة بشتائم الجلادين وكلمة (اعترفي..).

في مساء اليوم الرابع رأيناهم يدفعونها معصوبة العينين إلى شاحنة مع ثلاثة معتقلين آخرين. سمعنا العريف يهمس بالسّر إلى صاحب الحانوت : لقد دفنوهم أحياء في حفرة خارج بغداد، مثل جميع الموقوفين الخطرين الذين يأبون الاعتراف..

منذ ذلك اليوم، بدأت تتحطم فينا معابد ثقتنا وإيماننا بما تعلمناه من معتقدات أهلنا وقومنا ودولتنا. كالفيضان اجتاح الشك وقلق الإيمان روحنا، وطفق بلا رحمة يزيح عنا ما تعلمناه وما سنتعلمه حتى يوم رحيلنا.

سقطنا مريضين، ومكث (آدم) بعدي بأيام طريح الفراش بين الحياة والموت. كنا معاً صريعين بين أنياب حمى حزننا وخيبة آمالنا، تنهش بنا كوابيس سجينة معلقة شبه عارية تصرخ بنا، ومن عينيها تسكب علينا مياها دفاقة حارة كانت تصلينا وتبث فينا لذة لم نعرفها من قبل.

منذ ذلك اليوم، تغيرت حياتنا، وبدأنا نشق طريقين مختلفين، ونبتغي هدفاً واحداً : حلم بجمال مطلق وخالد. (آدم) اختار الموت ليخلق جنته الموعودة، يحررسجينته من قيودها ويلبسها ثوباً أبيض شفافا لتكون حورية يحلق معها فوق الجنان وأنهار خمر وعسل ولبن. أما أنا فإن حزني وعشقي لسجينتي قد استحالا إلى لذَّة غريبة ممزوجة بصرخات عذاب ودم. كم من ليال أمضيتها وأنا استمني على جسدها وهي معلقة من معصميها بقضبان النافذة! لم أكن في أعماقي راغبا في التمتع بآلامها، إنما لكي أشاركها عذابها وأضفي على مشهد جراحها وموتها لذة وشبق الحياة.

صار الموت وسيلة (آدم) ليلتقي حوريته في جنته الخالدة. كان يبحث عنها في (إيمان) الموصلية، وفي (مارلين) السويسرية، وفي الثورة والتنظيم والقضية والحاسوب. أما انا فقد فضلت أن أبقيها حية متجسدة في

خيالي لأمارس معها شبق الوجود رغم الجلادين وجدار غرفة التحقيق. كنت في الخيال وفي الواقع أغور في جسد المرأة وأنهشها بلهيب شهوتي محاولا أن أغور في أعماقها بحثاً عن عالم سجينتي الخالد.

* * *

الآن، وأنا أنظر في عيني (آدم) وهو يحكي لي عن حوريته (هاجر)، لم أعد أشاهد تلك السجينة معلقة مشرفة على الموت كما رأيتها دائماً في عينيه، بل اني لأول مرة أشاهدها طليقة مبتهجة في جنان وهاجة وأنهار من مياه ونور. لقد استحال (آدم)، منذ أن التقى بـ (امرأة القارورة) إلى كائن يحيا ويستمر في الوجود مستنشقا حكايات حوريته عن الأسلاف. في دمه راحت تسبح عوالم قديمة بأراضيها وأقوامها وفنائها وخلود سلالاتها.

ما أدركت قوة هذه الحكايات وتأثيرها السحري الخارق إلا بعد أن عشتها أنا أيضاً بعد فترة وجيزة. عرفت فيما بعد أن كل شيء في (هاجر) كان يتجاوزحدود الطبيعي. تجاربها مع أسلافنا جعلت منها امرأة مثلى، معطاءة لأعظم الملذات، متمرسة في إثارة رغبات دفينة، تتحد فيها المكنونات، وتنعدم الفروقات، ويسمو الوجود إلى غايته الأزلية في الرقي والصعود نحو المطلق : الأجمل والأروع والخالد!

كانت تخلب (آدم) تلك السهولة في ممارسة الحب معها. إنه لم يكن مضطراً إلى أن يداعبها لكي يهيئها، كما تعود مع النساء. كانت دائمة التهيؤ والحرارة والرطوبة. الأكثر من هذا أنها كانت تصل إلى ذروة اللذة في الوقت المناسب تماماً، ولم تجعله يحس، ولا في أية مرة، بضرورة كبت حركته وتهيجه واللجوء إلى العقل لكي ينتظرها حتى تصل إلى الذروة المتأخرة عادة عند غيرها. كان يقول عنها: إنها سرمدية الشهوة.

بدأت علاقتهما بتبادل جسدي محض. كان يعطيها جوعاً عتيقاً ولهيب توق أزرق، وهي تعطيه خصباً خالداً ومهارة خمسة آلاف عام في صنع اللذة. مع الزمن وتوالي اللقاءات المفعمة بحكاياتها، هي عن تاريخ الأسلاف، وهو بشروحاته عن تطورات العصر وأحلام المستقبل، ثمة نشوة جديدة طفقت تنمو وتمتزج مع ارتعاشة جسديهما: نشوة الروح.. نشوته هو بولوج ماض مصنوع من حكايات لا تنتهي، ونشوتها هي بانفتاح على مستقبل متجسد في شروحات حالمة. كان (آدم) يلتهم منها حكاياتها عن الماضي، ويغورخياله بعيداً في كهوف كلماتها إلى حد أنه كان يتلمس جسمه ويشاهد نفسه في المرآة بحثا عن آثار الأسلاف. وكانت هي تتلقف منه أحاديثه عن عصر (الحاسوب) وتطور العلم والتكنولوجيا وغزو الفضاء، وتغيب في أحلامه عن: االعدالة والمساواة بين النساء والرجال والغاء الحدود واتحاد الشعوب في دولة ديمقراطية واحدة تقودها هيئة الأمم المتحدة، كما كان يردد لي ذلك في ثمله.

* * *

في هذه الفترة كنت ألاحظ على وجه (آدم) علامات الصحة والبهجة. صار هو الذي يسخر مني وينادني : (أيها الهرم). كان يزورني نهاراً في غرفتي، ويوقظني من نومي. يتفحص رسومي، ويسألني عن مغامرات

ليلتي. منذ ان قررنا قبل سبعة أعوام أن يشق كل منا طريقه الخاص، وانا أعيش حياة عابثة مختلفة تماماً عن حياته : أستيقظ بعد الثانية ظهرا. أبدأ بالرسم وأنا احتسي شايي وأطبخ طعامي وأتنصت لأخبار وموسيقى. في المساء كنت اتسلل إلى حانة (القط الأسود) في (كاروج) وأبدأ باحتساء كؤوس نبيذ أحمر ثم أتنقل بين حانات ومراقص حتى إطلالة الفجر لأعود مع صيد ليلتي. كنت عند الكأس الأولى أشترط أن تكون صيدتي مهرة جامحة اروضها على سريري، لكني مع تناوب الكؤوس كنت أتنازل بالتدريج عن شروطي حتى يصل بي الأمر- عندما يشح الليل بعطائه - أن اتقبل حتى من تتجاوز عمري بكثير، بل إني أحياناً أغمض عيني وأتقبل عجفاء نحيفة قاحلة أوسمينة مترهلة غير سالكة، وكنت أخفف عن ترددي بشيء من راحة الضمير لأني أرضيت امرأة.

كان المهم عندي أن لا أعود إلى فراشي وحيدا. ليس لي في حياتي غير الرسم والحب، وفي كلتا الحالتين المرأة هي الغاية والموضوع. كنت صيادا والليل هو بحري. كنت لا اتعب ولا أمل، وفي صبر الصيادين تكمن قوتي. أرمي سنارتي في بحر الليل مرات ومرات دون كلل حتى الفجر. مرة تخرج لي علبة صدئة، ومرة ضفدعة، ومرة غصن شجرة، ومرة سمكة فاطسة، حتى أصيد تلك البُنية الهائجة التي تظل تلبط بين يدي لأشويها وتشويني على نيران شهواتنا حتى الصباح.

كل نهار، عندما أواجه لوحتي أضفي عليها مسحات ألوان جديدة مما تكور في تلافيف روحي من ذكريات امرأة الليلة السابقة. كل امرأة كانت تترك على لوحتي ألوانها وخطوطها، إن كانت امرأة كريمة محمومة ذات أمجاد في سوح الجسد - وهن قلائل عادة - فإن ذكراها ستجعل فرشاتي تنساب متألقة على القماش برضا وسلام وترسم خطوطاً متموجة راقصة، ونوراً ومياهاً وسماء وحقولا وآفاقا متنائية. وإن كانت امرأة ليلتي متمنعة باردة كموقد بلا حطب - وهن غالبية عادة- تستلقي معي كدُمية منفوخة، عاقلة وتستحي من الفحيح والاستهتار، في نهار الغد ستنهال فرشاتي بضربات مرتبكة غاضبة لتفرغ على القماش ألواناً حارة عنيفة وخطوطا حادة مُتكسرة ومجعلكة، وترسم عواصفاً وغيوماً وحرائقاً وعيوناً مدماة وثقوباً سوداء في كون غامض.

* * *

في كل لقاء كانت (هاجر) تنتزع (آدم) من واقعه وترميه في أغوار احد عوالمها المنسية. لاتفوت أية مناسبة إلا وذاكرة التاريخ حاضرة فيها. إذا ما رأت فيلما تاريخياً، خرجت منه تذرف دموعاً وهي تحكي له عن جده فلان الذي مر بمثل أحداث الفيلم، في سجن تحت الأرض بعد اجتياح الاسكندر المقدوني لمدينة بابل، وهلم جرا. أو هي تضحك بخلاعة تجلب انتباه زبائن المقهى، وتقول له إن جلسته هذه ونظرته المتفكرة إلى الكأس ذكرتها بأحد أجداده الذي كان شاعراً داعراً في قصر الخليفة.

يوماً، كان (آدم) يتنزه معها في غابة مطلة على شاطىء بحيرة (ليمان) عند أطراف مدينة (مونترو). كانت شمس خريف نادرة في طريقها للاختباء وراء جبال (الألب) المطلة على البحيرة، تاركة في أعقابها وهجاً نحاسياً يجعل الأشجار العارية كشواهد مقبرة خرافية. كانت (هاجر) ترتدي ثوباً أبيض شفافا يضفي عليها هيئة ملائكية منسجمة مع المشهد. كانت تسير أمامه كمهرة معتوهة، مرفوعة الرأس، تتمايل في مشيتها، وخصلات شعر حنّي تتدلى على ردفين مرتجفين.

عندما كان (آدم) يحدثني عن ذلك، كان منفعلا ودموع الارتباك في مقلتيه كطفل يحكي فيلماً مرعباً. غص بالكلمات ليعبر لي عن مشاعر الاندهاش التي انتابته وهو يحدق إلى قامة (هاجر) تتهادى أمامه في تلك الغابة. كان يشعر بإلفة ونكهة عُتق كأنه سبق وزار هذا المكان. لم يسبق له أن رأى (هاجر) بمثل هذه الصورة المشوشة الهلامية كأنها في حلم... انتابه إحساس غريب كان يتجاوز الواقع والمعتاد. لاحظ أنها كانت تصدر همهمات استغراب وتحدق في الغابة كأنها تستذكر شيئاً. ثم فجأة أطلقت آهة تعجب، وتجمدت في وقفتها وهي تحوم برأسها في الأرجاء وترفعه إلى السماء كأنها تستغيث. اقترب منها وحدق إلى عينيها يفتش فيهما عما اكتشفته. كانت دهشته لا توصف. لم يشاهد في حياته عينين بهذه السعة التي تجعل جمالهما من التطرف بحيث أنه يكاد يصير قبحاً. كان فيهما مشهد مجسم كأنه يراه عبر نافذتين يغطيهما الندى :

الخصب والعشق ممزوجان بالدمار والغضب. كانت هناك الغابة مكتظة بأشجار وقبيلة رعاة وجثث محاربين مدججين بسيوف تبرق بصرخات عذاب ورعب ترتج في السماء. وفي طرف المشهد، كانت (هاجر) في حرش الغابة خلف صخرة بعيداً عن الرعاة والمحاربين، عارية تضطجع مع محارب يشبه (آدم)، جسده مخضب بجراح وقدمه المقطوعة تنزف دماء وهو يمارس حُباً وموتاً على جسدها.

لم يدرك (آدم) كم دام هذا الموقف. خيل إليه أنه قد غاب عن الوعي وتوغل بعيداً في مشهد عينيها وعاش أحداثا بطول أعوام وأعوام. أقسم لي أنه لم يكن مرة مفعماً باليقين بأنه قد عاش يوماً مثلما عاش ذلك اليوم في عيني حوريته. امتدت ذراعيه إليها وراحت أصابعه وشفتاه وانفاسه تغوص في ثنايا لحم عابق بطفولة وفحش. بينما كان يغور فيها كانت عيناه تحدقان في عالم عينيها ولسانه يلعق دموع ذكراها. في لحظة انبثاق الرعشة المخبولة، شق صمت الغابة انفجار اطلاقة وانبعاث حشرجة وضجة بين أغصان الشجرة الهرمة، ثم سقط شيء على صدريهما العاريين مفعماً بحرارة وحركة. حينما انفصلا من هول المفاجأة، كان رعبهما ممتزجاً ببقايا لذة، وشاهدا أفعى على الأرض مرقطة بألوان وجراح، وهي تلبط بين أوراق يابسة وأتربة لتكافح موتاً اجتاح جسدها مع اطلاقة صياد مجهول.

* * *

هنا يتوجب عل أن أخبركم بصراحة أني مع الأيام وتوالي حكايات (آدم) ومتابعتي للتغيرات التي كانت تطرأ على سلوكه، رحت أنا بدوري أغوص بالتدريج في تشعبات هذه القضية، وتصاعدت في رغبة جامحة في مشاركته في حوريته. كنت عندما ينام عقلي وتنطلق رغباتي الدفينة يتسلل خيال (هاجر) متلبسة هيئة (السجينة) لتمارس بغاءها في أحلامي. رسمتها في خيالي على أجساد نساء صيدي ومارست مجوني معها. صنعت لها في خيالي صورة متكاملة لم تختلف كثيرا عن صورتها الحقيقية عندما التقيتها فيما بعد. توغلت معها بين أحراش البردي وتلافيف الأهوار التي لم أرها في حياتي، إنما عرفتها من حكايات والد (آدم)، حيث امضينا ليالي وليالي ونحن ننصت لحكاياته عن قبائل الأهوار وعن حروبها وشيوخها وحياتها بين المياه والأبقار والأفاعي والطيور والخنازير الوحشية.

حكت (هاجر) عن حياة أبيه وكشفت بعض من أسراره. قالت إنها التقته وهو فتى وزغب وجهه ما زال خفيفاً. بعد أن عاش قصة حب فاشلة مع فتاة من قريته، سرق القارورة من أبيه، وهجر الأهوار ليلتحق بأول فصائل الجيش العراقي. عاشت معه (هاجر) جميع مراحل حياته التي أمضى شطرها الأكبر في محاربة انتفاضات قبائل البلاد : تمردات كردية بين جبال صخرية وثلوج، غزوات قبائل بدوية قادمة من بادية الشام وصحراء نجد، انتفاضات عشائر الجنوب والأهوار ضد بعضهم البعض وضد اقطاعييهم وشيوخهم.

مما أدهشنا أول الأمر أنها كانت تسرد حكايات الحروب والعنف كأنها مثل جميع الأمور الأخرى التي عاشتها. صحيح انها كانت تحزن عندما تتذكر موت عشاقها، إلا أنها ما كانت تتأثر بذكر موت الجموع عبر حروب وطوفانات وطواعين ماحقة. أدركنا سبب عدم حزنها عندما عرفنا أنها خلال خمسة آلاف عام عاشت حروبا وكوارث ما لم يعشها إنسان غيرها : حروب ضد ناس، وحروب ضد طوفانات مدمرة، وحروب ضد طواعين مهلكة، وحروب ضد غزاة أجانب، اضافة إلى حروب عابرة بين أفراد من أجل نزوات حياة يومية. منها عرفنا أننا معشر البشر من سلالة شعوب لا تتناسل بالدم فحسب إنما تحيا وتبني حضارات زاهية وتنشر أدياناً وأفكاراً إنسانية مسالمة، كلها معجونة بالدم.

* * *

الآن فقط تكشف لـ (آدم) سر ذلك الحدث الغريب الذي جرى يوم كان أبوه يعاني سكرات الموت. اتذكر يوم زارنا رجل يشبه إلى حد بعيد والد (آدم). لم يكن أحد منا يعرفه، حتى والدة (آدم) لم تتعرف عليه. قال إنه صديق قديم يعود أصله إلى نفس أصل الأب وقد هجر الأهوار معه وشاركه في جميع حروبه وتجاربه. لكننا لم نسمع به من قبل. قلنا لعل هناك سبباً ما جعل الأب لا يذكره في حكاياته عن ماضيه. كان شيخاً قد تجاوز السبعين وقد ارتسمت على وجهه الأسمر المحروق بالشمس وعلى كفيه آثار جروح قديمة. كان يرتدي ثياب أهل الجنوب التقليدية : عقال وكوفية (يشماغ) مرقط وسترة فوق صاية قهوائية وقميص ابيض دون ياقة. ومن يده تدلت مسبحة ذات حبات سوداء لامعة بالأخضر وطقاتها تطن بأصوات لذيذة. عندما اقترب من

السرير، نظر إليه الأب بابتسامة شاحبة تداري الموت. انحنى عليه الشيخ وعانقه وبكيا بصوت خافت، ثم أخذا يتهامسان بكلمات ما كانت مسموعة، إلا أنني الآن أدرك جيداً وبعد عشرة أعوام على الحادثة أنهما تلفظا بكلمة (قارورة)، وصدرت من الأب كلمة : "شكراً " مسموعة نابضة بوفاء وعرفان. ثم استدار الشيخ ناحيتنا وامر الوالدة والأخت بأن تعدَا قِدر ماء دافيء وطشتا مع آنية فيها شراب (عِرق السوس) وقدحين وبعض الكعك وثمرات تمر. بعد أن وضعتا هذه الأشياء على الأرض قرب السرير، طلب أن نخرج له صندوق حاجيات الأب القديمة، ثم امرنا أن نتركهما وحدهما ونغلق الباب.

لم نطرح أي سؤال. كنا مأخوذين بحضوره الغريب، بشبهه الكبير بالأب، بالحب الغامض الذي يجمع بينهما، بهذه الثقة التي يأمرنا بها. بعد دقائق خرج وأقفل باب الغرفة وجلس معنا صامتاً طوال النهار. ظل متمدداً على الأريكة تاركا بصره يغيب في إحصاء حبات المسبحة وهو يتمتم بأسماء الله الحسنى. أدى صلاة الظهر ثم حدق فينا جميعاً وكأنه يتبصر في أعماقنا، ويشاهد أفكارنا القلقة، ويربت على قلوبنا الكئيبة، وشعرنا حينها بتسلل تيارات خدر في ابداننا، ورحنا جميعاً نشاهد بعضنا البعض، ننساب على أرض الغرفة كأننا أخذنا نستحيل إلى مياه، والجدران تذوب كثلج وتتكشف عن عالم شاسع بلا آفاق ولا منتهى:

كنا جميعاً نطوف على سطح كون من مياه، وقد شرع الشيخ في الارتقاء والتناثر في الأعالي. ذرات وذرات شكلت فوق كوننا سماء هائلة وغيوما وكواكب، في كل جزء منها كانت عيون الشيخ تراقبنا، ونحن ما زلنا نذوب وذراتنا تنتثر بين أمواج كوننا، ونشاهد أنفسنا في كل ذرة ماء، وننصت لطنين حبات مسبحة وقد طغت وطغت حتى صارت هي صوت الوجود الأوحد.

عندما صحونا من غفوتنا وجدنا الشيخ قد اختفى وقد انتشرت في الدار ذرات مساء معتمة، فتوجهنا كلنا إلى الغرفة. عندما فتحنا الباب عبقت رائحة نفاذة، جنس وبخور وعِرق سوس ولبن وتمر. كان أبي مغمض العينين، مكسواً بغطاء أبيض، ومستلقياً على سريره الذي أعيد ترتيبه. رأيته يفتح عينيه كأنه في حلم سعيد، ويرسم ابتسامة مفعمة بشُكر وحُب. كان جسمه ووجهه ينبضان بحياة ودفء كنهر ألقى طينه وغرقاه في البحر واستعاد صفاء لونه. كانت آنية عرق السوس وقدحان فيهما بقايا شراب، والتمر والكعك لم يبق منهما شيء. من أشعل عود البخور؟ ومن رتب الفراش وساعد الأب على الاغتسال في الطشت؟ ثم الشيخ، من كان وكيف رحل بعد أن غشي علينا جميعاً؟ كل هذه الأسئلة لم نعثر على اجوبة لها إلا بعد عشرة اعوام، هنا في (جنيف) وقد التقينا بـ(هاجر). في حينها تذكرت حكايات الأب عن معجزات (الإمام علي) واستجابته لمن يستغيث به. يقول إنه لم يتوان عن إغاثة النبي يونس عندما ابتلعه حوت، ويوسف عندما رُمي في بئر، ومريم وهي تولد بعيسى، بل إنه اغاث امه نفسها قبل ان تتزوج وتنجبه وانقذها من براثن أسد، لأنه ابدي وخالد.

حدث مرات عديدة عندما كان الأب يمرض، يستيقظ متعرقاً من حلمه ويخبرهم أنه سيشفى لأن (الإمام) قد زاره قبل قليل. يقول إنه ذو وجه اسمر نوراني، يلف رأسه بعمامة سوداء، يجلله رداء ابيض، يمتطي

صهوة جواد أشهب مدججاً بسيفه (ذو الفقار)، ويخاطبه بصوت مجلجل : "يا ولدي من أجل أبنائك أعينك على الشفاء"، ثم يشفى.

لكن في ذلك المساء قد مات الأب دون ان ينطق بكلمة، إنما كان يغمض عينيه ويفتحهما بين آونة وأخرى كأنه يتابع حلما سعيداً. تناوبنا جميعاً على تقبيله ونحن نحاول أن نفك سر خطوط البهجة المرتسمة على محياه كأنه راحل في واحدة من حروبه القديمة.